.مفهوم علم اجتماع الأدب و اتجاهاته

1-المفهوم:

هو علم نشأ قبل منتصف القرن العشرين، تأثر في نشأته بالتطورات التي حدثت في نظرية الأدب من جانب ، و ما حدث في مناهج علوم الاجتماع من جانب آخر [1].

وتتضمن تسمية سوسيولوجيا الأدب أو علم اجتماع الأدب تيارات ومجالات بحث شديدة التنوع (...) إن ما يميز أساسا سوسيولوجيا الأدب عن شكل آخر من أشكال النقد الأدبي هو التأكيد المبدئي على أن الفرد الواحد في الإبداع الفني ليس معنيا وحده ،بل إن العمل الفني هو تعبير عن الوعي الجمعي الذي يشارك فيه الفنان بشدة أكثر من مشاركة مجموع الأفراد[2].

اختلف النقاد في عدد التيارات أو الاتجاهات التي ظهرت في علم اجتماع الأدب ،فهناك من يتحدث عن اتجاهين ، وهناك من يتحدث عن ثلاث اتجاهات .وقد فضلنا تقديم التقسيم الثاني لوضوحه ،و عليه سيكون الحديث عن ثلاثة تيارات.

أ-التيار الأول:

يطلق عليه علم اجتماع الظواهر الأدبية، وهو تيار تجريبي يستفيد من التقنيات التحليلية في مناهج الدراسات الاجتماعية مثل: الإحصائيات و البيانات وتحليل المعلومات ،وتفسير الظواهر انطلاقا من قاعدة بيانات محدودة، يبينها الدارس طبقا لمناهج دقيقة، ونستخلص منها النتائج التي تسفر عنها الدراسة.

يرى هذا التيار أن الأدب جزء من الحركة الثقافية ، ويرى أن تحليله يقتضي بتجميع أكبر قدر ممكن من البيانات الدقيقة عن الأعمال الأدبية ،مثال:عندما نعمد إلى دراسة الرواية فإننا ندرس :

-الإنتاج الروائي في فترة محددة.

-نضع البيانات الإحصائية الشاملة له،فنجد أنه جزء من الإنتاج السردي (قصة، قصة قصيرة ...)

---

[1]-صلاح فضل ، مناهج النقد المعاصر ،ص42.

[2]-المرجع نفسه ، ص42.

-التوظيف الكمي لهذا الإنتاج و يتضمن :

_عدد القصص والروايات التي أنتجت في هذه البيئة .

_عدد الطبعات التي صدرت.

_ درجة الانتشار.

_ما تعرضت له من عوائق.

_ما أثرته من ردود.

حتى يمكن لنا أن ندرس الظاهرة الأدبية كأنها جزء من الظاهرة الاقتصادية لكنه اقتصاد الثقافة ،ينبغي لنا أن نستخدم فيها مصطلحات الإنتاج و التوزيع والتسويق،كل ذلك نستخلص منه نتائج بالغة الأهمية،هي التي تكشف عن حركة الأدب في المجتمع ،و مدى انتشاره وتقلصه، و ردود الفعل الناجمة عنه .[3]

أهم رواد هذا التيار "إدوارد إسكاربيه "له كتاب في علم اجتماع الأدب درس فيه الأدب كظاهرة إنتاجية ،أي في مدى ارتباطها بقانون السوق.

من أهم مآخذ هذه المدرسة :

-دراستها لأعمال الأدبية دراسة كمية ،فهي تغفل الطابع النوعي ،لذلك تستوي عند رواد هذه المدرسة الرواية الجيدة من الرديئة ،أو الرواية العظيمة مع الرواية التي انتشرت بفعل الإثارة أو إلى غير ذلك من الأشياء التي تؤدي إلى الانتشار. تستوي مثلا الرواية البوليسية مع الرواية الأدبية الخالدة.

-تستند هذه الدراسات إلى لغة الأرقام، وكل ما يتصل بالأعمال الأدبية من العوامل الخارجية مثل :عدد النسخ وعدد الطبعات و مجموع القراء، و إذا كانت قد ترجمت إلى لغات أخرى، أو أنتجت في مسلسل تلفيزيوني.

_ لا يمتلك هذا المنظور إمكانية الحكم بالقيمة على الأعمال الأدبية ، فهو لا شأن له بالقيمة أو الكيف ،فهو لا يمتلك رؤية جمالية لأعمال الأدبية.

---

[3]-**المرجع السابق ، ص43/42.**

تطور هذا الاتجاه وارتبط بشكل ما بالجانب والجمالي و النوعي للأعمال الأدبية ، ويمثل هذا التطور دراسة قامت بها باحثة سويدية هي "مارينا ستاغ" عن سقف الحرية التي يتمتع بها كتاب القصة في مصر ، وقد نشرت دراستها تحت عنوان "حدود حرية التعبير" . و قد درست الموضوع في ثلاثة عقود ؛ أي طيلة فترة حكم عبد الناصر و السادات ،و انطلقت من فكرة أن الإبداع القصصي هو أكثر الأشكال الإبداع ارتباطا بحركة المجتمع ،وقد يصطدم هذا الإبداع بعراقيل نتيجة للمنظومة الاجتماعية السائدة ،أو الممنوعات الموجودة في المجتمع ،أجملتها في :

_الممنوعات السياسية ،و الممنوعات الدينية ، و الممنوعات الأخلاقية.

و انتهت إلى أن المصادرة ،والقمع والحضر،ومنع التداول ,العقوبة ،والسجن من أهم المؤشرات التي نقيس بها درجة الحرية المسموح بها في المجتمع،و درجة الحرية هي مؤشر نوعي و كمي في نفس الوقت.

درست الباحثة الأعمال الإبداعية التي تعرضت للحضر ، و درست الحالات التي هاجر فيها الكتاب بأعمالهم لينشروها في أماكن أخرى.يمكن لهذا النوع من الدراسات أن يخلص الدراسات الاجتماعية للأدب من محدودية الدراسات الكمية،وهذا إذا ارتبط بجوهر الأدب و الذي هو التعبير عن الذات الفردية والاجتماعية.

ب–التيار الثاني :

يتمثل هذا التيار في رواد المدرسة الجدلية التي تعود إلى "هيجل" و رأيه الذي بلوره فيما بعد ماركس في العلاقة بين البنى التحتية و البنى الفوقية في الإنتاج الأدبي ،و الإنتاج الثقافي ،وهذه العلاقة متبادلة و متفاعلة مما جعلها علاقة جدلية.

المنظر الأساسي لهذه المدرسة هو "جورج لوكا تش" الذي درس العلاقة بين الأدب و المجتمع باعتبار أن الأدب انعكاسا و تمثيلا للحياة .

وقدم "لوكاتش" إسهاما مبكرا في نوع آخر من الدراسات السوسيولوجية للأدب ،وهو الذي يسمى سوسيولوجيا الأجناس الأدبية،وهي التي تربط بين نشأة الجنس الأدبي و ازدهاره وبين طبيعة

الحياة الاجتماعية و الثقافية لمجتمع من المجتمعات ،فكانت كتاباته عن طبيعة ونشأة الرواية مقترنة بنشأة حركة الرأسمالية العالمية ،وصعود البرجوازية الغربية.

جاء بعده "نوسيان غولدمان" منظر لهذا الاتجاه ينطلق من أفكاره،وهو يهتم بالجانب الكيفي بالدرجة الأولى ، وهي الإضافة الحقيقة لهذا المنهج ،فهو لم يغفل الجانب الكيفي في دراسته لأعمال الأدبية ،بل اعتمد على وجه التمديد في هذا الجانب القيمي لشرح مدى العلاقة بين الأعمال الأدبية و الوعي الجماعي.

3-التيار الثالث:

يسمى علم اجتماع النص الأدبي ،له إرهاصات كثيرة ،وتاريخ عريض،فهو الذي يمثل الحلقة الأخيرة في سوسيولوجيا الأدب التي أفادت من تطور المناهج النقدية لكي تعبر على الوساطة الملائمة التي يمكن عن طريقها الدراسة العلمية الخطية و الحادة للعلاقة بين الأدب والمجتمع ،ويمثل هذا التيار "بيار زيما" صاحب كتاب "النقد الاجتماعي" الذي أعطى فيه تطورا أكثر نضجا و تطورا في سوسيولوجيا الأدب. [4]

[4]-المرجع السابق ، ص52.